الانسان وهدفه

شغفني دائماً ذلك النموذج الأدبي الذي يصور الانسان خلال رحلته البشرية مكافحاً من أجل الوصول الى هدفه، مناضلاً ضد ما يعترضه من عقبات، بعضها يهدده وبعضها يغريه، لتعيقه عن مواصلة رحلته، عن الاستمرار في التقدم نحو غايته. ولا شك أن يوليسيس — كما صوره هوميروس في القرن التاسع قبل الميلاد — في الإلياذة اولاً ثم في الاوديسا علىَ وجه الخصوص — هو اروع مثال لهذا النموذج الذي اعنيه. فهو يمثل انتصار الانسان على قوى القدر بمختلف أنواعها مستخدماً في ذلك شجاعته وعقله، وذلك اثناء عودته — بعد انتهاء حروب طروادة التي اشترك فيها — إلى زوجته الجميلة بنيلوب وهي تنتظره مخلصة مع ابنها تيليماك في وطنه أتيكا.

ويقدم لنا جون بنيان في القرن السابع عشر الميلادي في كتابه «سياحة المسيحي» هذا النموذج، وقد بلور فيه وجهة نظر العصور الوسطى المسيحية ممثلة في شخص بطل القصة وقد اطلق عليه اسم «المسيحي» وهو انسان ترك «مدينة الظلام» بمن فيها حتى زوجته واولاده ليقوم برحلة طويلة في طريقه الى المدينة السماوية، وهو يلقى في رحلته الاهوال والمغريات كما لقيها من قبل يوليسيس — بل ان بعض هذه العقبات لتتشابه حتى في اسمائها — وهو ينتصر عليها واحدة بعد الاخرى، ولكن سبيله الى ذلك ليس العقل بل هو .. الايمان. ونستطيع ان نضرب مثلا لذلك باحد هذه الاحداث المتشابهة التي قابلها كل من يوليسيس والمسيحي فعندما سجن يوليسيس ورفاقه في كهف السيكلوب المارد ذي العين الواحدة استعان على الخروج بالحيلة والدهاء فأسكره أولاً حتى ثمل ثم فقأ عينه وهو مخمور، فلما افاق السيكلوب منزعجاً دحرج الحجر الكبير الذي كان يسد باب كهفه وجلس خارجه ليقتفي يوليسيس او رفاقه اذا حاولوا الخروج، وتحايل يوليسيس على ذلك بأن ربط كل ثلاثة خراف معاً ثم جعل احد رجاله يتعلق في اسفل الخروف الاوسط، واطلق الخراف خارج الكهف، فكانت كلما مرت بالسيكلوب وتلمسها لم يجد اثراً لاعدائه.

اما في سياحة المسيحي فاننا نجد المسيحي وصاحبه الراجي يقعان في قبضة الجبار «الميئس» ويسجنهما في قلعة الشك، ثم يعذبهما كل ليلة بايحاء من زوجته «الموسوسة» وهما يستطيعان الخلاص اخيراً، ولكن بغير طريق العقل. «وقبل انشقاق الفجر بقليل تنبه المسيحي وقال: «ويلي! لقد لبثنا هذه الايام في هذا السجن تحت هذه الشدائد وغفلنا عن مفتاح الوعد الذي معي وهو — كما ارجو — يفتح كل باب في هذه القلعة ... فأخرج المسيحي ذلك المفتاح واخذ يعالج به باب السجن حتى اداره في القفل واذا به قد انفتح بسهولة فخرجا وهما يصفقان فرحاً .. » وهكذا اعلنت العصور الوسطى — عن طريق بطل جون بنيان — ان الايمان — وليس العقل. هو وسيلة الانسان للخلاص مما يصادفه في طريقه من عقبات.

وفي القرن العشرين لم تعد الرحلة تستغرق عشر سنوات كما فعل يوليسيس بل هي قد تستغرق ثماني عشرة ساعة وخمساً واربعين دقيقة كما فعل ستربلوم بطل جيمس جويس في روايته يوليسيس. وبينما نجد بنيلوب تنتظر في وفاء زوجها وتمتنع على خطابها نرى مسز بلوم تخون زوجها خيانة متصلة وتصطفي العشاق في اسراف يدهش اهل المدينة. وبعد ان كانت الرحلة في العالم الخارجي أصبحت رحلة داخلية في نفس الانسان أساسها التذكر واجترار الاحداث.

ومع ذلك فلست أجد ان مستر بلوم في رواية جيمس جويس يبلور تماماً كفاح الانسان خلال رحلته نحو هدفه في المجتمع الصناعي الغربي، انما البطل الجديد هنا هو «ك» في رواية «القلعة» لفرانز كافكا. ان «ك» يهبط القرية التي تحيط بالقلعة — والقرية والقلعة رموز اقطاعية استخدمها كافكا — ويريد «ك» أن يثبت أنه مساح الارض الجديد الذي تطلبه القلعة موظفاً بها، وهو لا يستطيع ان يدخل القلعة إلا بعد أن يثبت صحة وظيفته تلك، ويتطلب منه ذلك أياماً ثم شهوراً ثم سنين يختلط في اثنائها بأهل القرية متنقلاً ما بين فندق وأسرة ومدرسة وهو يحب «فريدا» ولكنه لا يستطيع أن يتزوجها لانه بغير وظيفة. فالكفاح هنا من اجل أوليات الحياة: الوظيفة، والبيت. والكفاح هنا لم يعد يتخذ الرحلة رمزاً له كما في الأوديسا او في سياحة المسيحي بل هو تنقل — أشبه بالتحنيط — في مكان محدود؛ ولم تعد هناك كهوف أو جبابرة بل تعقيدات روتينية لا نهاية لها، ولم يعد البطل قادراً على الوصول الى هدفه سواء عن طريق العقل اوعن طريق الايمان، حتى ان المؤلف نفسه لم يتم روايته.

ونحن ما نزال ننتظر الملحمة التي ينتصر فيها الانسان من جديد بعقله وشجاعته وإيمانه على كل ما يعترض طريقه من عقبات

القاهرة — **يوسف الشاروني**